كورت فالدهايم:
لا مفاوضات مباشرة مع إسرائيل !

أثارت إسـرائيل ضجة ضد التصريحات التى أدلى بها كورت فالدهايم فى أول حديث له بعد تعيينه سكرتيرا عاما للأمم المتحدة والذى كنت أنا الذى أجريته معه، لأنه أيد فيه الموقف العربى الذى كان يرى أن القرار ٢٤٢ لا يدعو للمفاوضات المباشـرة مع إسرائيل، لكنـى وجدت فالدهايم فى أول مؤتمـر صحفى له يؤكد صحة الحديث ويعلن التزامه بكل ما ورد فيه.

فـى ديسـمبر ١٩٧١م كنت فى نيويورك أتابع سـباق السـكرتير العـام الجديد للأمم المتحدة، فقد كان السـكرتير آنذاك يوثانت قد أعلن أنه لن يرشـح نفسه لفترة ثانية نظرا لظروفة الصحية، وبات على المنظمة الدولية أن تختار سكرتيرًا جديدًا.

فـى نفس الوقت كانـت الحرب الهندية الباكسـتانية دائرة وكانـت هناك محاولات محمومـة داخـل مجلس الأمن للتوصل دون جدوى إلى وقف إطلاق النار، وهكذا انشـغل المجلس بهذه القضية التى كانت أهم حدث على السـاحة الدولية فى ذلك الوقت، وظل يرجئ مسـألة اختياره للسكرتير العام الجديد، مما أعطانى فرصة لعمل مزيد من التحقيق حول ملابسات موضوع السكرتير العام وفرص كل من المرشحين له، ومواقف كل منهم من القضية العربية... الخ.

وكانت أهم الأسماء التى ترددت داخل أروقة الأمم المتحدة لشغل هذا المنصب جونار يارينج الممثل الشـخصى للسكرتير العام الحالى ومبعوثه إلى الشرق الأوسط، والدبلوماسى الأرجنتينى البارز كارلوس أوريتز دى روزاسى الذى قضى عدة سنوات قائمًا بأعمال سفارة بـلاده فى القاهرة، ومندوب فنلندا الدائم فى الأمم المتحدة ماكس جاكوبسـون الذى كان أكثر المرشحين تحليًا بروح القيادة، لكن الاتحاد السوفيتى لم يكن يخفى عدم رضائه عن جاكوبسون مما أضعف من فرص اختياره بشكل كبير.

أمـا كورت فالدهايم فقد كانت حكومة النمسـا قد أعلنت أنـه لا مانع لديها من توليه منصب السـكرتير العام وهو سـفيرها الدائم بالمنظمة الدولية، ذلك إذا رأى مجلس الأمن

ذلك، لكن من الناحية الرسمية لم يكن مرشحًا. ولذا لم يكن من حقه أن يقابل الصحفيين أو يقوم بحملة انتخابية ليشرح سياسته فى حالة توليه هذا المنصب.

ولقد ساعدنى تأخر مجلس الأمن فى البت فى اختيار السكرتير العام فى أن أقيم علاقات شخصية مع جميع المرشحين لهذا المنصب فيما عدا جونار يارينج الذى كان فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت، أما دى روزاسى فقد ساعدتنى خدمته فى القاهرة على أن أنشئ معه علاقة سريعة رغم أننى لم أعرفه فى القاهرة، وقد كان دى روزاسى ألطف المرشحين جميعًا على المستوى الشخصى، وكان لا يظهر فى أروقة الأمم المتحدة إلا وقد وضع وردة كبيرة فى عروة بدلته.

كذلك أقمت علاقة قوية مع جاكوبسون الذى كنت أعتقد أنه أفضل المرشحين جميعًا لما له من شخصية قوية تذكرنى بداج هامر شولد فى الوقت الذى كان السكرتير الحالى يوثانت يميل إلى الدبلوماسية الهادئة التى تبحث عن إجماع الأعضاء ولا تفرض رأيا تعتقد أنه الصواب وتحاول إقناع الأعضاء به.

أما فالدهايم فقد كانت مشكلتى معه هى امتناعه عن التحدث إلى الصحفيين كبقية المرشحين، التزامًا بالموقف الرسمى لبلاده الذى كان يقضى بأن فالدهايم متاح available وليس مرشحًا، لكنى توصلت معه لإقامة علاقة صداقة بديعة استمرت لسنوات بعد ذلك بعيدًا عن كونى صحفيا أتابع سباق السكرتير العام، فقط طلبت منه – فى حالة فوزه بالمنصب – أن يسمح لى بأول حديث صحفى له، فوافق الرجل، وهكذا كنا نلتقى بشكل شبه دورى كل يوم تقريبا فى استراحة المندوبين الشهيرة والمعروفة باسم delegates lounge

وفى إحدى المرات كنا نتناول الغداء فى مطعم الأمم المتحدة وقلت له: أما زلت متذكرا وعدك لى؟ قال: بالطبع، ولكن أتمنى فقط ألا يكون ذلك فى العام القادم، وكان بذلك يشير إلى أنه فى كل مرة تتحدد جلسة لبحث موضوع السكرتير العام ينشغل مجلس الأمن بقضية وقف إطلاق النار فى الحرب الهندية الباكستانية، وكانت لوائح الأمم المتحدة تنص على أن اختيار السكرتير العام لا يتم إلا داخل مجلس الأمن ثم يطرح اسمه بعد ذلك للتصويت فى الجمعية العامة، لكن ها هو ذا موعد انتهاء دورة المنظمة الدولية قد حان.

وفى الأسبوع التالى كانت ستحل فترة أعياد الميلاد دون أن يكون قد تم اختيار السكرتير العام الجديد.

قلت لفالدهايم لقد تأكدت أن جلسة هذا المساء سيتم فيها إصدار قرار وقف إطلاق النار وأن الاتحاد السوفيتى لن يستخدم حق (الفيتو) هذا المرة بعد أن تم إدخال بعض التعديلات على مشروع القرار الأمريكى، وقلت لفالدهايم: هذا يجعلنى على يقين من أن موضوع السكرتير العام سيتم حسمه غدًا على أكثر تقدير، فرد بطريقته الهادئة وبلا انفعال: فلنتمنى ذلك.

وفى اليوم التالى كنت مع عدد كبير من الصحفيين ننتظر خارج قاعة مجلس الأمن التى كان اجتماعها مغلقًا، حين خرج علينا متحدث رسمى ليعلن أن المجلس قد اتفق على ترشيح كورت فالدهايم سكرتيرًا عامًا للأمم المتحدة، وتركت الصحفيين وهو يسألون بعضهم البعض: كورت من؟ فيرد البعض: إنه مندوب النمسا الدائم.. وانطلقت إلى مقر الوفد النمساوى الذى كان يقع خارج مبنى الأمم المتحدة، حيث دخلت على فالدهايم قائلا: لقد جئتك لأجرى أول حديث مع السكرتير العام الجديد حسب اتفاقنا، فقال: لكن أحدا لم يخبرنى بمثل هذا القرار، قلت: أغلب الظن أنهم سيخبرونك خلال الحديث، ثم وضعت أمامه جهاز التسجيل وأخرجت ورقة الأسئلة التى كنت أعددتها قبل أكثر من أسبوع مضى، قال لى: فلننتظر إلى أن يتم إخطارى رسميا، قلت: إذا انتظرنا ذلك فسيمتلئ مكتبك هذا بالصحفيين، وعندئذ لن يكون حديثى هو الأول كما وعدتنى.

ووافق فالدهايم على إجراء الحديث شريطة ألا أذيعه إلا بعد إعلان الخبر رسميًا بعد التصويت فى الجمعية العامة، ثم تحدث معى على انفراد خلال ما يقرب من نصف الساعة إلى أن تلقى خبر اختيار مجلس الأمن له فى مكالمة تلفونية من مكتب السكرتير العام يوثانت قيل له إنه تقرر أن جلسة التصويت عليه فى الجمعية العامة غدًا.

وخلال هذا الحديث الذى أخذته بعد ذلك جميع وكالات الأنباء العالمية نقلاً عن (الأهرام) وقف فالدهايم مع الجانب العربى الذى كان يرى فى ذلك الوقت أن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الخاص بالتسوية فى الشرق الأوسط لا ينص على المفاوضات المباشرة بين الجانبين العربى والإسرائيلى، وأن موقف إسرائيل القائل بأن القرار يكتنفه الغموض وأنه ينبغى التفاوض بشأنه بين الجانبين هو موقف غير سليم وأنه يزيد من صعوبة مهمة جونار يارينج الذى قال إنه سيبقيه فى موقعه كمبعوث للسكرتير العام فى المنطقة، ووصف فالدهايم مهمة يارينج بأنها (أكثر الوظائف استحالة فى العالم) مستعيرا بذلك تعبير تريجفى لى السكرتير العام الأول للأمم المتحدة فى وصفه لوظيفته.

كمـا كان السـكرتير العـام الجديـد واضحًا أيضًا فـى حديثه عن مشـكلة اللاجئين الفلسـطينيين فقال إنها لا تحل ماليا فقط وإنما أيضا سياسـيا، ودعا إلى ضرورة توطين الفلسطينيين فى بلادهم.

وكان مثـل هـذا الموقـف الواضح والصريح جديدا بعض الشـئ على سـكرتارية الأمم المتحدة خلال فترة يوثانت، حيث كان الاعتماد على الأساليب الدبلوماسية التى تتحاشى كل مناطـق الصـدام فى أى صراع قائم، وهو ما دفع متحدث رسـمى من وزارة الخارجية الإسرائيلية بمجرد نشر الحديث إلى التشكيك فى صحة الحديث، لكن فالدهايم انتهز أول مؤتمر صحفى عقده كى يؤكد كل ما جاء على لسانه فيه.

❑❑❑

يوسف شاهين:
لن أسكن فى قصر الأشباح !

حين وصل يوسف شاهين فاقدا للوعى إلى المستشفى الأمريكى بضاحية نويى فى باريس كان عدد كبير من عشـاق فنه فى انتظاره فى الشـارع أمام باب المستشفى.. كان من بينهم فرنسيون ومصريون وعرب مقيمون فى فرنسا، لكن السيارة التى كانت تحمله دلفت بسرعة إلى داخـل المستشـفى دون انتظار حسـب تعليمات الطبيب ووقـف محبـوه فى الخـارج ينتظـرون الأخبـار عن حالته من كل من يخرج من المستشفى.

يوسف شاهين

وفى الداخل كانت ماريان خورى ابنة شقيقة يوسف شاهين ومخرجة الفيلم التسجيلى الشـهير عن رائدات السـينما المصرية تجلس خارج غرفة العناية المركزة تستقبل الأصدقاء المقربين الذين سمح لهم بدخول المستشفى.

قالت لى فى تأثر إن يوسف كما تعرف يعشق باريس، لكن ها هو ذا يأتى إليها دون أن يدرى، وحين يفيق قد يتصور نفسه فى مستشفى بالقاهرة.

كانت ماريان هى رفيقة السفر مع خالها نظرا لمرض زوجته كوليت التى لم تكن تستطيع السفر، وحين كنت رئيسا للجنة تحكيم مهرجان سينما البحر الأبيض المتوسط (ميد فيلم) منذ بضع سنوات كان يوسف شاهين هو ضيف شرف المهرجان وقد حضر بصحبة ماريان فكانت هى التى تحرص على تناوله الأدوية فى مواعيدها وعلى التزامه بالنظام الغذائى الذى حدده له الطبيب وعلى عدم إفراطه فى التدخين.

وقد أرادت إدارة مهرجان (ميد فيلم) تكريم المخرج المصرى العالمى فأنزلته فى أحد القصور القديمة المقامة على الطراز القوطى العتيق والتى يرجع تاريخها إلى القرن الـ ١٧، لكنا فوجئنا فى اليوم التالى بيوسف شاهين يرفض أن يبيت فى ذلك القصر ليلة ثانية قائلا إنه (مسكون) وإنه لم يستطع النوم طوال الليل بسبب الإزعاج الذى سببته له أشباح ملاك القصر القدامى من البارونات والكونتات!!

ولم نعرف أنا وماريان ماذا نقول لإدارة المهرجان فطلبنا من يوسف شاهين عدم ذكر قصة الأشباح هذه ووعدناه بأننا سنرتب مع المهرجان لانتقاله إلى السكن فى أحد فنادق روما، وبعد جدل طويل قال يوسف شاهين: لن أتحدث فى هذا الموضوع من تلقاء نفسى، لكن إذا سألونى سأقول لهم لماذا لم أنم ليلة أمس!

ونجحنا أنا وماريان فى نقل يوسف شاهين من (قصر الأشباح) على حد تعبيره إلى أحد الفنادق الكبرى متعللين بأنه يحتاج إلى الإقامة فى فندق به خدمة للغرف Room Service حيث إنه مضطر إلى تناول أدويته فى مختلف أوقات النهار وأن يتناول معها بعض الطعام وذلك لا يتوافر فى قصر لا يسكنه أحد، وكاد يوسف شاهين يخلق مشكلة حين رد علينا أمام إدارة المهرجان قائلا: من قال إن القصر لا يسكنه أحد؟!

تذكرت ذلك وأنا واقف مع ماريان خارج غرفة العناية المركزة بالمستشفى الأمريكى فى باريس رأيت وجه يوسف شاهين وهو يضحك مما سببه لنا من حرج بسبب قصة أشباح القصر فى روما وتصورته يضحك الآن مما سببه هذه المرة لكل أصدقائه المقربين بمرضه الحالى والذى لابد أصابهم جميعا بصدمة عنيفة.

لكنى تذكرت (جو) أيضا فى كواليس مسرح السلام بشارع قصر العينى حين جاء يشاهد مسرحية (الجنزير) وأراد بعد العرض أن يحيى فريق الممثلين فاصطحبته إلى خلف المسرح حيث هنأهم واحدا واحدا: عبد المنعم مدبولى وماجدة الخطيب وخالد النبوى ووائل نور

وعزة بهاء، وفى تلك الليلة قبل ماجدة الخطيب التى لم يكن قد رآها منذ زمن بعيد وقال لها: لقد أدمعتى عينى وستكونى معى فى جميع أفلامى القادمة.

وتذكرت أيضا زيارته لى فى المسرح القومى حيث كانت تعرض مسرحية (رقصة سالومى الأخيرة) بطولة سهير المرشدى وعبد المنعم مدبولى أيضا.

وقد كان كل منا يحرص على أن يشاهد الآخر أعماله، وكم استمتعت بمشاهدة أفلام يوسف شاهين فى منزله بالزمالك حين كان يدعونى على العشاء فنشاهد آخر فيلم أخرجه قبل نزوله السوق، بل فى معظم الأحيان، قبل أن يكتمل تماما، وأذكر مع فيلم (إسكندرية.. نيويورك) أننا شاهدنا الفيلم خاليا تماما من كل المؤثرات الصوتية وكان طويلا للغاية فاقترحت على (جو) أن يتم اختصار جزء من رقصة كارمن التى وجدتها حرفت مسار الأحداث قليلا وكان من الممكن اختصارها دون الإخلال بالبناء الفنى للفيلم، قد استمع (جو) إلى ملاحظتى وامتدت المناقشة بيننا طويلا بعد انتهاء الفيلم لكنه بالرغم من ذلك لم يبد موافقة على ملاحظتى، وفى النهاية حين عرض الفيلم على الجمهور أردت مشاهدته فى صورته النهائية من الفيلم دون أن أشعر أنه كان طويلا أكثر مما ينبغى وعندئذ تذكرت مناقشتنا واكتشفت أنه قد اختصر بالفعل الجزء الخاص بالرقصة دون أن يقول لى.

فى تلك الأمسيات كان الطبق الرئيسى على العشاء هو (المكرونة) والتى كان يقدمها لنا فى المطبخ الأنيق لشقته الواقعة وراء فندق (ماريوت) بالزمالك، وعلى المنضدة المعدة للأكل بالمطبخ كان الحديث يتفرع من التعليق على الفيلم إلى الأحداث الجارية، لكن الحديث كان يعود فى النهاية إلى (المكرونة) التى كانت دائما عظيمة فلم نختلف حولها أبدا.

❑❑❑

وزير خارجية الدانمارك الأسبق:
الفرق بين الحرية والتعدى على الآخر

قلت لـ أوفة إليمان – يانسن: فى المرة الأولى حين نشرت الرسوم الدانماركية حول النبى محمد ﷺ كان يمكن أن يقال إن الإساءة للمسلمين لم تكن مقصودة وأنها كانت مجرد ممارسة طبيعية لحرية التعبير، أما حين يتم إعادة نشر الرسوم بعد رد الفعل العارم للمسلمين فى مختلف أنحاء العالم فهذا لا يمكن أن يكون إلا استفزازا مقصودا.

يعتبر أوفة إليمان – يانسن الذى قارب السبعين من عمره أحد عمداء الحياة السياسية فى الدانمارك، فهو يتسم بالحكمة وبالنظرة الموسوعية، وقد شغل منصب وزير الخارجية الدانماركية لما يقرب من ١١ عامًا من ١٩٨٢م إلى ١٩٩٣م مما أتاح له الانفتاح على العالم والاطلاع على حقائقه بشكل مباشر، وقد قام خلال هذه الفترة بزيارتين رسميتين لمصر، كما اختار أن يزورها مرة ثالثة. بصفة شخصية بعد اعتزاله الحياة السياسية. حيث قابلته هو وزوجته.

والحقيقة أن إليمان – يانسن ليس مجرد وزير خارجية سابق فهو زعيم المعارضة بالبرلمان ورئيس الحزب الليبرالى، وفى الانتخابات البرلمانية التى جرت عام ١٩٩٨م حصل الحزب بقيادته على عدد كبير من الأصوات وكان ينتظر أن تشكل الوزارة برئاسته لكنه تخلف عن الأغلبية المطلوبة بفارق مقعد واحد.

ولقد اختلف معى إليمان – يانسن فيما ذهبت إليه حول الرسوم الدانماركية وقال إنه يرى عكس ما قلت، ذلك أنه فى المرة الأولى كان هناك استفزاز حقيقى، حيث عقدت مسابقة لعمل هذه الرسوم التى تسخر من نبى واحد من أهم الأديان فى العالم والذى تحظى الدانمارك بالكثير من أتباعه، وتلك الأمور الحساسة والمتعلقة بالدين وبمقدسات البشر لا يمكن أن تؤخذ بهذا الاستخفاف لتصبح موضوعا لمسابقة فى الرسوم الكاريكاتورية الساخرة.

قلت: إن الحجة التى سيقت إلينا فى ذلك الوقت كانت أن هذه هى حرية التعبير وأن الغرب يفعل الشئ نفسه مع المسيح الذى ربما لم يحظ أى من أنبياء الله بمثل ما حظى به عيسى عليه السلام فى الدول الغربية من السخرية سواء فى الفن التشكيلى أو فى الأدب أو فى المسرح والسينما، فلماذا تكون هناك حصانة للمسلمين.

فقال: هذا صحيح فقد شاهدنا الكثير من ذلك فى مختلف الدول الأوربية، لكن كان علينا أن نعى أن المسلمين فى الدانمارك أقلية وأنه فى الوقت الذى قد تجد الأغلبية أن من حقها أن تسخر من كل ما يخصها فإن عليها أن تكون أكثر مراعاة لمقدسات الآخرين خاصة إذا كانوا أقلية، وهو ما لم يحدث فى هذه الحالة، أما بخصوص حرية التعبير فهذه بالطبع حرية مصانة فى جميع الدول الغربية لكن إيذاء الآخرين لا علاقة له بالحرية، وأعتقد أن غاندى هو الذى روى قصة الرجل الذى كان يمشى فى الطريق ضاربا الهواء بسوط كان يحمله فى يده قائلاً: إنه يمارس حريته فى أن يفعل ما يشاء، لكن حين مس هذا السوط أحد المارة خرجت فعلة الرجل من كونها ممارسة لحرية التعبير لتصبح تعديا على الآخر لا علاقة له بالحرية.

ويواصل إليمان – يانسن حديثه فيقول: أما هذه المرة فظروف النشر كانت مختلفة، حيث تم الكشف عن مؤامرة لاغتيال أحد الرسامين الذين شاركوا برسومهم فى المرة الأولى وقد كنت أتمنى ألا يتم الإعلان عن مثل هذه الأشياء لكنها أعلنت وبدأت الصحف تنشر تفاصيلها، ومثلما يتم نشر صورة الشخص الذى نشر الرسم الذى يدور حوله موضوع صحفى فقد تم نشر الرسم الذى رسمه الرجل الذى كان يتم التخطيط لاغتياله، أى أن سوء النية لم يتوافر هذه المرة فلم يتم نشر كل الرسوم الـ ١٢، وإنما فقط الرسم الخاص بالرسام المذكور فى المقال، هنا أيضًا كنت أفضل عدم النشر لحساسية الموضوع. لكنى أرى أن النية هذه المرة كانت تختلف عن المرة السابقة.

ولقد تحول إليمان – يانسن إلى الصحافة بعد اعتزال الحياة السياسية وأصبح الآن يكتب مقالات دورية فى بعض الصحف الدانماركية وحين نشرت الرسوم الكاريكاتورية فى المرة الأولى عام ٢٠٠٥م كتب فى نفس الأسبوع وقبل أن تندلع الأزمة قائلا إن هذه الرسوم تمثل استفزازا لا لزوم له، وبعد أن تفجرت الأزمة طالب إليمان – يانسن رئيس تحرير جريدة «يلاندربوستن» التى نشرتها بالاستقالة.

ورغم اعتزال إليمان – يانسن السياسة فإنها مازالت شاغله الأول، حيث أصدر عددا كبيرا من الكتب التى لاقت نجاحا كبيرا والتى كان معظمها يدور حول سنواته كوزير للخارجية وعن سنوات الحرب الباردة.

وأسأل السياسى الدانماركى الكبير عن آخر كتبه فيقول:

لقد صدر منذ شهرين فقط كتابى رقم ١٦ وأسأله عن موضوعه فيقول: لقد كان عنوانه «الطريق الذى اخترته» ومن العنوان تستطيع أن تستدل على الموضوع.

هيلارى كلينتون:
لا بديل عن الدولة الفلسطينية !

حين قابلت هيلارى كلينتون فى عام ١٩٩٩م كانت الأجواء السياسية حولها متوترة، بسبب ما أعلنته فى حديث نقل عنها بأن الفلسطينيين يجب أن تكون لهم دولتهم حتى يتحقق السلام فى الشرق الأوسط، وجاءت تصريحات زوجة الرئيس الأمريكى كالقنبلة حيث لم يكن أى رئيس أمريكى قد أعلن ذلك من قبل، لذا فقد بادر البيت الأبيض بالإعلان بأن تصريحات السيدة الأولى لا تعبر عن السياسة الأمريكية وأنها صرحت بما صرحت به بصفة شخصية.

كان الليل خلابا فى معبد الأقصر حيث أقام الصديق العزيز فاروق حسنى وزير الثقافة مأدبه عشاء على شرف السيدة الأولى فى الولايات المتحدة بين أعمدة المعبد، كنا فى بداية الربيع وكان النسيم العليل يداعب فى السماء السحب الباقية من فصل الشتاء، وقد عبرت هيلارى كلينتون عن انبهارها بمدينة الأقصر وحين حدثها الوزير عن مشكلة المياه الجوفية التى تهدد آثار المدينة بادرت بالتبرع بمبلغ ٤٠ مليون دولار لإنقاذ آثار المدينة من تلك المياه التى ارتفع مستواها بسبب زيادة الرقعة السكنية التى أصبحت تحيط بمنطقة الآثار كما يحيط حبل المشنقة برقبة الإنسان.

قالت لى هيلارى كلينتون: لقد قرأت كثيرا عن الأقصر وآثارها، لكنى لم أكن أتصور أنها بتلك الروعة!.. ثم أضافت بعد برهة: إنى أكاد أقول إن الأقصر من أجمل مدن العالم وأكثرها ثراء.

كنت قد قابلت زوجة الرئيس الأمريكى قبل ذلك فى القاهرة قبل مجيئنا إلى الأقصر، وكانت قد سبقتها قبل وصولها إلى القاهرة أقاويل تزايد انتشارها فى الولايات المتحدة بأن هيلارى تعتزم ترشيح نفسها لمجلس الشيوخ فى الانتخابات القادمة وبعد خروج زوجها من البيت الأبيض، وحين سألتها فى لقائى بها فى القاهرة عن صحة هذه التوقعات لم تنفها نفيا صريحا بل قالت إنها لم تتخذ قرارها بعد، مما كان بالنسبة لى تأكيدا على نيتها أن تواصل حياتها السياسية وأنها فقط تريد اختيار الوقت المناسب للإعلان عن ذلك.

والحقيقة أننى لم أتصور مطلقا أن هيلارى رودام كلينتون ستتحول بعد انتهاء فترة رئاسة زوجها للولايات المتحدة إلى سيدة بيت ترعى شئون المنزل، وذلك لمعرفتى بتاريخها.

ولقد كانت هيلارى رودام (وهذا هو اسمها الأصلى قبل أن تتزوج بيل كلينتون) محامية شهيرة، وكانت حين تزوجت كلينتون تعتبر ضمن أكبر مائة محام فى الولايات المتحدة ووصل مرتبها السنوى فى المؤسسة القانونية التى كانت تعمل بها إلى مائة ألف دولار، فى الوقت الذى كان زوجها لا يزيد مرتبه كمحام لولاية أركنساو على ثلث هذا المبلغ.

ولقد ظلت هيلارى تحتفظ باسمها الأصلى بعد زواجها من بيل كلينتون عام ١٩٧٥م وحتى عام ١٩٨٠م حين سقط كلينتون فى انتخابات التجديد بولاية أركنساو فنصحت هيلارى بأن تأخذ اسمه كبقية الزوجات الأمريكيات حتى لا تبدو كأنها تتنصل من انتسابها له بعد خسارته فى الانتخابات، وهكذا أضافت هيلارى اسم كلينتون إلى اسمها دون أن تحذف اسمها الأصلى الذى يكتب هكذا Rodham لكنه يُنطق رودام دون لفظ حرف الـ h، وهو الاسم الذى تحتفظ به حتى الآن، وبذلك أصبحت هيلارى رودام كلينتون أول زوجة رئيس فى تاريخ الولايات المتحدة تحتفظ باسمها الأصلى الذى كان لها قبل أن تتزوج الرئيس.

وإذا كانت هيلارى قد خاضت انتخابات مجلس الشيوخ بعد خروجها مع زوجها من البيت الأبيض فإن معظم الأمريكيين لا يعتقدون أن تلك الانتخابات التى نجحت فيها ستكون نهاية المطاف، فالتوقعات تشير إلى أن الحياة السياسية لزوجة الرئيس السابق والنائبة الحالية ستتوج حتما بأن تصبح هيلارى رودام كلينتون أول سيدة تخوض انتخابات الرئاسة فى تاريخ الولايات المتحدة.

وكنت قرأت أقوالا لهيلارى كلينتون فى حديث لها نشر عام ١٩٩٦م تقول فيها بالحرف الواحد: أتمنى أن تصبح امرأة رئيسة للولايات المتحدة فى بداية القرن القادم، ثم قالت: إنى أرى يوما ليس ببعيد سترأس فيه امرأة الحزب الديموقراطى أو الجمهورى وسيقوم الحزب بترشيحها للرئاسة.

من أجل ذلك كله كنت حريصا حين حضرت مأدبة العشاء التى أقيمت على شرف هيلارى فى الأقصر أن أستفسر منها شخصيا عن حقيقة تصريحاتها حول الدولة الفلسطينية وما هو مفهومها الحقيقى عن قضية الصراع العربى الإسرائيلى، ففى يوم من الأيام قد يحكم هذا المفهوم السياسة الخارجية الأمريكية فى منطقتنا.

سـألت هيلارى سؤالا مباشرا – بل أكاد أقول مباغتا – وسط حديثنا العابر أثناء مأدبة العشاء: هل صحيح أنك طالبت بقيام دولة للفلسطينيين؟ وانتظرت رد فعلها الذى تصورت أن يكون بأنها ليسـت فى زيارة سياسـة، لكننى فوجئت بها تقول بتلقائية وكأنها تجهل الضجة التى أثارها هذا الموضوع فى بلادها: نعم، فهذا الشئ ضرورى إذا كنا نتطلع إلى سلام حقيقى فى الشرق الأوسط.

فسـألتها: إذا كانت المسـألة محسومة بهذا الشـكل فعلام كانت الضجة التى أثارها قولك هذا؟.

وشـرحت لى هيلارى أن الذى أثار الضجة هو عمـدة نيويورك رودلف جولياني الذى كان يستعد لخوض انتخابات مجلس الشيوخ وخشى من منافسة هيلارى له فأراد أن يثير عليها أصوات يهود نيويورك الذين يزيد عددهم على يهود إسرائيل نفسها.

قلت لها: لكن البيت الأبيض لم ينف ما صرحت به، كل ما قاله هو أننى كنت أعبر عن رأيى الشخصى وهذا صحيح،فهذا هو رأيى وأنا مقتنعة به، فلا بديل عن إقامة الدولة الفلسطينية.

وسـألت هيلارى عن أكثر ما بهرها فى مصر فقالـت لى: إنه تلك الطاقة الهائلة التى تجعـل المصريين دائما قادرين على تخطى المحن فقلت لها: سـيدتى، لقد وضعت يدك على أهم ما يميز هذا الشعب، فهذه الطاقة هى التى صنعت تلك الآثار التى نجلس وسطها وهى المنوط بها إخراجنا من أزمتنا الحالية.

ثم تسـاءلت بينى وبين نفسـى: يا ترى هل سـتتذكر فى المكتـب البيضاوى بالبيت الأبيض هذه الطاقة الخلاقة التى تحدثت عنها؟ وهل ستتذكر الدولة الفلسطينية؟!

❑❑❑

رئيس وزراء البرتغال:
زوجتى لا تستشيرنى فى شئ !

أنيبال كافاكو سيلفا رئيس وزراء البرتغال السابق والذى فاز فى الأسبوع الماضى بمنصب رئيس الجمهورية ليس كغيره من رجال السياسة، فهو أستاذ الاقتصاد صاحب الآراء المحددة والذى يتمتع بثقة كبيرة فى النفس ولا يستشير أحدا من أعوانه فيما ينوى تطبيقه من سياسات قائلا: إنه يعرف الحق ولا يقع أبدا فى الخطأ، وحين قابلته فى صيف عام ١٩٩١م فى لشبونة قال لى وقتها إنه سيصبح رئيسًا للبرتغال.

كافاكو سيلفا يستقبل محمد سلماوى فى مكتبه بلشبونة

فى يونيو ١٩٩١م قمت بزيارة للبرتغال، وما أن وصلت إلى العاصمة لشبونة حتى وضعت أمتعتى فى الفندق وخرجت استكشف العاصمة البرتغالية التى كنت أزورها لأول مرة، كان مساء صيفيا دافئا فمشيت على قدمى فى شوارع المدينة ودهشت أن وجدت المنازل جميعها مفتوحة وساكنيها يقفون على أبوابها يرحبون بالمارة ويقدمون لهم

السردين المشوى وكئوس النبيذ، لكنى حين خرجت فى اليوم التالى كانت أبواب المنازل قد أغلقت واختفى ذلك الكرم الذى فاجأنى فى الليلة السابقة. وحين قابلت رئيس الوزراء أنيبال كافاكو سيلفا وسألنى عن رأيى فى البرتغال، قلت إنها بلاد جميلة جدا، لكن يبدو أن سكانها متقلبون جدا فهم فى يوم يفتحون بيوتهم ويقدمون الأكل والشرب للمارة، وفى اليوم التالى يوصدون أبوابهم. فضحك كافاكو سيلفا – الذى حذرنى البرتغاليون بأنه لا يتمتع بروح الدعابة – وقال لى إن اليوم السابق كان عيد القديس أنطونيو الذى هو القديس الراعى لمدينة لشبونة، وطريقة الاحتفال بالعيد هى تقديم السردين المشوى الذى تشتهر به لشبونة مع كأس من النبيذ البرتغالى للمارة فى الشوارع، ثم قال لى رئيس الوزراء لكن عيد المدينة هذا مثله مثل جميع الأعياد لا يأتى إلا ليوم واحد فى السنة!

قلت: إذن من حظى أننى وصلت مع حلول العيد الذى شكل لدى أول انطباع عن عاصمتكم الجميلة والكريمة أيضا ولو ليوم واحد فى السنة!

ولد أنيبال كافاكو سيلفا فى عام ١٩٣٩م وبدأ حياته أستاذا للاقتصاد الذى درسه بجامعة لشبونة التى تخرج فيها عام ١٩٦٤م، ثم حصل على الدكتوراه فى عام ١٩٧٣م من جامعة يورك البريطانية وعاد ليدرس الاقتصاد بالجامعة ويقوم بتأليف الكتب وكتابة المقالات والأبحاث الاقتصادية، لكنه فى عام ١٩٨٠م انتخب نائبا فى البرلمان وفى نفس العام عين رئيسا للحزب الاجتماعى الديمقراطى والذى كثيرا ما نسميه خطأ بالحزب الاشتراكى الديمقراطى وهو لا علاقة له بالاشتراكية.. بل هو حزب يمثل النقيض تماما، حيث يسعى لتطبيق اقتصاديات السوق ويؤمن بالاقتصاد الحر وليس بالاقتصاد المركزى.

ويبدو كافاكو سيلفا وكأنه كان على موعد مع القدر، فقد جاء فى وقت كانت بلاده قد نفضت عنها دكتاتورية سالازار وما تبعها من سياسات اشتراكية وكانت تسعى لإلغاء التأميمات السابقة استعدادا لدخول السوق الأوربية المشتركة، وهكذا وبعد أشهر قليلة من رئاسة كافاكو سيلفا للحزب الاجتماعى الديمقراطى أصبح رئيسا لوزراء البرتغال، وهو المنصب الذى شغله لمدة عشر سنوات من عام ١٩٨٥م وحتى عام ١٩٩٥م، وفى تلك السنوات غير كافاكو سيلفا وجه الحياة الاقتصادية، والسياسية فى البرتغال.

ولقد وجدت فى شخصية رئيس الوزراء البرتغالى والذى كان فى عام ١٩٩١، قد أنهى فترة رئاسته الأولى للوزارة عام ١٩٩٠م وبدأ الفترة الثانية إصرارا واضحا وتصميما قويا على

تطبيق السياسات التى يؤمن بها، وقد عرف عنه أنه لا يستشير أحدا فى هذه السياسات مما كان يثير حنق بعض من قابلتهم من أعضاء حزبه أنفسهم وحين سألته فى ذلك قال هذا ما يقولونه لكنى أعتقد أن مهمة رجل السياسة هى أن يتخذ القرارات وينفذها وألا ينتظر آراء الآخرين، لذلك فأنا أفضل أن اتخذ القرارات حتى لو أخطأت فى بعضها عن أن امتنع عن اتخاذ ما يجب اتخاذه منها، وإذا كانوا يقولون إننى أتخذ قراراتى دون أن أستشير أحدا، فهذا أفضل أن يقولوا إننى غير قادر على اتخاذ القرارات.

وقد سعيت للقاء أنيبال كافاكو سيلفا لأنه كان يواجه نفس المشاكل التى كانت تواجهها مصر فى ذلك الوقت (والتى مازالت تواجهها حتى الآن وإن كانت البرتغال قد تخطتها منذ سنوات)، فقد كانت هناك أزمة اقتصادية ناتجة عن السياسات الاقتصادية السابقة، وكانت معدلات البطالة من أكثرها ارتفاعا فى أوربا، وكان لدى البرتغاليين إحساس انهزامى يلازمهم فى كل شئ كانوا يسمونه miserabilissimo portuguese أى البؤس البرتغالى فأى مشروع برتغالى يجب أن يفشل وأية فرصة للتقدم والنجاح يجب أن تذهب سدى.

ولقد تمكن كافاكو سيلفا من حل الكثير من المشاكل الاقتصادية للبرتغال ونجح فى أن يجعلها تتكامل مع الاقتصاد الأوربى فهبط بمعدل البطالة وحقق معدل تنمية وصل فى ذلك الوقت إلى ٤,٥٪ فغير المزاج العام البرتغالى وأزال الشعور بالبؤس والانهزامية وأصبح المواطن البرتغالى يعتقد فى إمكانية النجاح.

ولقد قلت لكافاكو سيلفا إن البعض كان يعتقد أن الشعور بالبؤس هو جزء من الشخصية البرتغالية والتى تعبر عنها ثقافتهم وفنونهم ومنها موسيقى (الفادو) الشهيرة والتى تشبه المواويل الحزينة عندنا، فقال على الفور الغناء الحزين موجود فى كل الشعوب وقديما قال أحد الشعراء الإنجليز إن أكثر الألحان عذوبة هى تلك التى تحكى عن أكثر الأفكار حزنا.

قلت إنه الشاعر الرومانى شيللى فى قصيدته الغنائية لطائر القبرة odetoa skylark لكنك فاجأتنى بالاستشهاد بالشعر وأنت رجل الاقتصاد صاحب القرار، فقال: إن بيتنا فيه الشعر والأدب وخاصة الإنجليزى منه لأن زوجتى أستاذة أدب إنجليزى، فقلت: إن تلك كانت دراستى أيضا، والحقيقة أن إشارة كافاكو سيلفا إلى الشعر فى حديثه ساهمت فى إضفاء قدر من الإنسانية على رؤيتى لشخصية رئيس الوزراء المعروف بحزمه، والذى لم

يكن يستشـير أحدا فى قراراته وسـألته إن كان يرفض استشارة زوجته فى أمور حياتهما، فقال: بل هى التى لا تستشيرنى فى شئ! على أن أهم ما حققه أنيبال كافاكو سيلفا خلال سـنواته العشـر كرئيس للوزراء وقبل أن ينتخب فى الأسبوع الماضى رئيسا للجمهورية هو أنه أدرك منذ البداية أن الإصلاح الاقتصادى لا يمكن أن يتم بمعزل عن الإصلاح السياسى حيث شهدت البرتغال خلال رئاسته للوزارة تعميقا للممارسة الديمقراطية التى لم يكن لها وجود فى عصر سـالازار الدكتاتورى، وهو يقول فى ذلك إن الديمقراطية ليست ترفا، بل هـى جـزء لا يتجزأ من عملية التنمية الاقتصادية ذاتها، ومعظـم ما أنجزناه فى الاقتصاد لم يكن من الممكن أن يتحقق فى غياب الممارسة الديمقراطية.. بل دعنى أقل لك إن التقدم الاقتصـادى الـذى يبقى هو ذلك الذى يتم فى ظل الديمقراطية لأنه يتم بمشـاركة الناس، لذلـك فهـم يحافظون عليه، أما ما يتم بغير إرادتهم فمن الممكن أن يهدم بسـهولة مهما كان عظيما.

كما أن كافاكو سيلفا استطاع أن يطبق برنامجا لخصخصة المشاريع التجارية والصناعية الكبـرى دون أن يؤثـر ذلك علـى مصالح العاملين فيها وذلك بأن جعل جزءا من الأسـهم المباعة يذهب للعمال أنفسـهم فيصبحون ملاكا وبثمن غير مرتفع، وثانيا بأن يذهب جزء آخـر لصغـار المدخرين بحيث تصبح نسـبتهم مع العمال ما بيـن ٢٠٪ و٢٥٪، أما بقية الأسـهم فيتم طرحها فى البورصة لتباع بأعلى الأثمان وهكذا أصبح الآن العمال شـركاء فى رأس المال مما ساهم فى رفع الإنتاج فى الوقت الذى أدخل رأس المال الجديد نظام إدارة أكفأ وقد سـاهم كل ذلك – على حد قول كافوكو سـيلفا – فى رفع الأجور، وهكذا جاءت الخصخصة بفائدة للجميع.

وأسأل أنيبال كافاكو سيلفا فى عام ١٩٩١م ما هى طموحاتك فى المستقبل؟.. فقد بدأت نائبا فى البرلمان ثم وزيرا ثم زعيما للحزب ثم رئيسا للوزراء فإلى أين ستذهب من هنا؟

فضحك وقال: إلى قصر (بليم)! وهو مقر رئاسة الجمهورية فى البرتغال.

❑❑❑

هالة:
نجيب محفوظ ترك لى وصية !

لم أعبأ بالحزن الذى خيم على وجهها وأخذت استجوبها كالمحقق: كيف تركتموه يموت؟ ألم يكن يتنفس وقلبه ينبض بالأمس فقط؟ هل تركتموه وحده بالغرفة؟ ربما استغاث فلم يسمعه أحد! فتحولت الفتاة البائسة إلى سابق عهدها كممرضة متمكنة تعرف عملها جيدا وأخذت تؤكد لى بثقة – وبعض الغضب – أن الجميع فعلوا كل ما يستطيعونه وقاموا بواجبهم على أكمل وجه.

كانت الفتاة هالة تدخل على الأستاذ نجيب محفوظ غرفته بالمستشفى فى أى وقت من الليل أو النهار بلا استئذان ودون أن تدق على الباب أو تستأذن فى الدخول، وفى وقت كانت الزيارة محظورة على الجميع – فيما عدا أسرة أديبنا الأكبر وعدد محدود من أصدقائه المقربين – كانت هالة مسموحا لها أن تخترق حصار غرفة العناية المركزة، لتدخل على الأستاذ بالقبلات أو تمسك بيده.

كانت هالة هى إحدى الممرضات اللاتى كن يتولين رعاية الأديب الراحل لكنها كانت ممرضة من نوع خاص لا تقتصر مهمتها على إعطائه الأدوية التى أمر بها الأطباء أو قياس درجة حرارته أو أى من المهام التى تقوم بها الممرضات الأخريات، وإنما كانت تتعدى هذا إلى إقامة علاقة إنسانية، مع مريضها الخاص نزيل الغرفة رقم ٦١٢ والذى كانت علاقتها به تعود إلى قرابة الـ ١٢ عاما حين دخل نفس المستشفى على إثر محاولة الاغتيال التى تعرض لها فى بداية شتاء عام ١٩٩٤م وكانت هالة فى ذلك الوقت أحد أهم أسباب تعافيه بسرعة وعودته لحياته الطبيعية، فقد كانت تحيطه بقدر من الرعاية الإنسانية التى كانت تقدمها له أسرته قبل أن يترك البيت إلى المستشفى، وكانت تملؤه ثقة بأن حالته ستتحسن، لكن أهم ما كانت تقدمه له هو أنها كانت تشعره بأنه لم ينعزل فى فراش مرضه عن دفء العلاقات الإنسانية التى لم يكن يستطيع الاستغناء عنه، ولقد عاش نجيب محفوظ طوال حياته بين الناس فى الشوارع والمقاهى وأماكن تجمعاتهم، والافتراق عنهم كان هو السجن الحقيقى بالنسبة له، بل ربما الموت نفسه، من هنا كانت حكمة وجهة نظر أستاذ الطب النفسى يحيى الرخاوى الذى أصر بعد نجاة الأستاذ من محاولة الاغتيال وخروجه من

المستشـفى ألا يلزم بيته فى حراسـة أمنية كما كان يريد له البعض، وأن يخرج إلى الناس كما تعود أن يفعل طوال حياته، وكان الدكتور الرخاوى يعد له مجموعة من الناس ليلتقى بهم أسبوعيا حتى لا تنقطع صلته بالناس وبالحياة، وهكذا عادت حياة محفوظ سريعا إلى طبيعتها فكان يلقى كل مجموعة من الأصدقاء فى يوم من الأسبوع مخصص لها.

ويبدو أن هذا هو ما فهمته هالة أيضا بحسـها الإنسـانى ودون توجيه من أطباء، ففى المستشـفى كان الأستاذ معزولا عن أصدقائه لكنها أشعرته أنه لم يفقد أصدقاءه القدامى بل أضاف إليهم أصدقاء جددا يحيطونه بالمحبة وبالدفء الإنسانى.

لقد كان الأسـتاذ ينظر إلى وجه هالة بارتيـاح واضح، صحيح أنها كانت تذكره بالأيام الأليمة التى أمضاها فى نفس المستشفى الملاصق لبيته منذ ١٢ عاما، لكنها ربما كانت تمثل له أيضا الثقة فى أنه سيتعافى ويخرج من المستشفى كما خرج فى المرة السابقة.

أمـا نحـن المحبين له فكنا ننظـر إلى وجه هالة فنعرف ما وصلـت إليه حالته، كان وجهها بمثابة خريطة دقيقة تترجم لنا خطوطها ما تظهره الأجهزة المحيطة بفراشـه من أرقـام وبيانات: هل ارتفعت نسـبة الأوكسـجين فى الدم؟ هل عـادت وظائف الكلى إلى العمل؟ هل عدد ضربات القلب فى معدلها الطبيعى؟.

فقط فى اليوم الآخير تحاشيت النظر إلى وجه هالة، ففى لحظة الفراق لم تكن هالة هى المرضة المقتدرة التى عهدناها، كانت فتاة محطمة، وجهها المكتئب وأنفها المحمر وعيناها المتورمتان تعبر عن حزن تنوء عن حمله الإنسـانية جمعاء، لكنى نظرت حولى فكان نفس الوجه يحيط بى من كل مكان، كان هو وجه شـريكة حياته المنهارة وكريمتاه وهما تقرآن له القرآن، كان هو وجه الأطباء والعاملين بالمستشفى، وكان وجهى أنا أيضا والذى لم أكن أراه بل كان هذا هو وجه جميع المصريين الذين يمسسه سوء إلا وهو بعيد عنهم، ففى المرة الأولى التـى أصيـب فيها لم يكن ذلك فى المقهى وسـط الناس وإنما كان على باب منزله، وفى المرة الثانية كانت إصابته إثر تعثره داخل منزله، إذن فالأمان بالنسبة له لم يكن بين حوائـط البيت المغلق وإنما فى رحابة الحماية الشـعبية التى كانـت توفرها له الناس فى الأماكن التى كان يرتادها، ولقد نجحت هالة فى أن تنقل إليه الإحساس بأنه بين الناس، فكانـت تدخل عليه غرفته وكأنها ضيف جاء لزيارتـه فتتبادل معه التحية وكأنها لم تره منذ فترة وتسأله عن صحته وأحواله فى ذلك اليوم، وكان يرحب بها كما اعتاد الترحيب

بزواره ويتحدث معها فى أمور مختلفة، وأثناء ذلك تكون هالة قد قامت بما كان عليها أن تقوم به من المهام الطبية الموكلة إليها دون أن يشعر هو بذلك.

كم من مرة دخلت على الأستاذ نجيب غرفته فوجدت الأطباء يقومون بإحدى مهامهم الرزيلة والتى لم أكن أحبها رغم علمى بضرورتها، مثل شفط البلغم من رئتيه بخرطوم سميك يدخل عبر حلقه، أو وضع جهاز التنفس الصناعى القبيح فى فمه، وكم من مرة كانوا يحاولون إطعامه أو تنظيف فمه وهو تحت تأثير الأدوية المخدرة فكان يحكم إغلاق فمه متصورا أنهم سيجرون له إحدى هذه العمليات المؤلمة، لكنى كثيرا ما كنت أجد هالة وسط الأطباء لا تفعل شيئا أكثر من أن تمسك بيده فتملأه ثقة بأن الحياة مازالت فيها قدر من الإنسانية ودفء المشاعر.

وفى إحدى الأيام قبل أن يرحل الأستاذ بوعيه عنا تاركا لنا جسده نطعمه بالأنبوب الذى أدخلناه بعملية جراحية إلى معدته، وندخل الهواء إلى رئتيه بجهاز التنفس الصناعى ونحدث الصدمات لقلبه كى يظل ينبض، كان يتحدث إلينا بصفاء وسكينة، وقالت له هالة: إن شاء الله حين تقوم بالسلامة سنذهب معا لعمل عمرة، فابتسم الأستاذ وقال: سيكون حجا إن شاء الله!.

لكن الأحداث تلاحقت ورحل نجيب محفوظ إلى الحج الذى لا يعود منه أحد، وبعد انتهاء مراسم الجنازة والدفن وفى جلسة هادئة بمنزل الفقيد سألتنى رفيقة دربه السيدة: عطية الله: أتذكر حين وعد هالة بأن تحج إلى بيت الله الحرام؟ قلت: أذكر كل شئ، قالت: ألا تعتبر تلك وصية له؟.

أليس علينا تنفيذها مادامت أنها كانت رغبة له؟ قلت: إن لم تكن رغبته، فهى رغبتنا جميعا.

❑❑❑

جلوريا جينور:
أغنيتى أنقذتنى من الضياع !

المطربة الأمريكية الســوداء جلوريا جينور هى صاحبة الأغنية الأسطورة I will survive أى (سوف أنجو)، وهى الأغنية التى ضربت الرقم القياسى فيما حققته من نجاح وفى حجم مبيعاتها منذ صدرت عام ١٩٨٠م وحتى الآن، لكن وراء جلوريا جينور قصة إنسانية تنطوى على الكثير من العبر منذ نشأتها بلا أب إلى أن اهتدت أخيرا إلى الأب الأكبر.. الله.

حين قابلت المطربة الأمريكية الشــهيرة جلوريا جينور فى القاهرة عام ١٩٩٧م لم أكن أتوقع أن أجرى معها حديثا صحفيا، فقد حضرت إلى القاهرة لإحياء حفل زواج أحد أبناء أسرة الصديق أحمد المغربى وزير الإسكان الحالى ودعيت للغداء معها فى اليوم التالى، وأثناء الغداء تطرق حديثنا إلى ما لم أكن أتوقعه، فقد روت لى النجمة الســوداء قصة اهتدائها إلى الله رغم عالم الأضواء المبهرة الذى يحيط بها والنجاح الساحق الذى حققته بما يصحبه من ملحقات عادة ما تلهى الإنسان عن أى اعتبارات روحانية.

المطربة الشهيرة جلوريا جينور مع محمد سلماوى

ولقد أعطتنى جلوريا جينور نسخة من سيرة حياتها التى وضعتها فى كتاب يحمل نفس عنوان أغنيتها الشهيرة وكان الكتاب سيطرح فى المكتبات فى الولايات المتحدة فى الشهر التالى للقائنا فى القاهرة.

وتحدثت معى جلوريا جينور عن حياتها فقالت: إن للمشكلات التى واجهتها فى حياتى كفتاة ثم كمطربة دلالات كثيرة وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بمشكلات هذا الجيل، فقد نشأت بلا أب، وهذا جيل فى معظمه لا أب له، فكم من الأطفال يولدون اليوم لأمهات لم يتزوجن، أو يولدون لآباء مشغولين عنهم بجمع المال فى هذا العصر المادى الذى نعيشه، إنها مشكلة عالمية وجدتها فى معظم دول العالم التى زرتها وإن اختلفت أسبابها من مجتمع لآخر.

قلت: إننا فى مصر لدينا نفس المشكلة ولكن لسبب آخر هو الأزمة الاقتصادية التى نمر بها، فهناك جيل كامل نشأ عندنا ليجد رب الأسرة يعمل فى إحدى دول الخليج ولا يحضر لرؤية أسرته فى مصر إلا مرة كل سنتين أو ثلاث، فما هى فى رأيك تأثيرات هذا الوضع على الجيل الجديد؟

قالت: لا شك أن البنين يعتمدون فى تكوينهم النفسى على وجود الأب وتلك حقيقة يقرها علم النفس التربوى، أما بالنسبة للفتيات فقد يتصور البعض أن المشكلة أقل لأن الفتاة تحتاج إلى أمها أكثر من والدها، لكن هذا غير صحيح، فالفتاة تحصل على احترامها لنفسها من والدها، فهو ينبغى أن يجسد لها المثل الأعلى الذى قد تبحث عنه فى زوجها بعد ذلك، ولأن الأب يحب ابنته لنفسها وليس رغبة فيها فإن ذلك يرسخ فى ذهنها منذ الصغر أنها أهل للحب، أما إذا غاب الأب من حياتها فإن الفتاة لن تجد إلا من قد يرغبها لأسباب غير الحب، وهكذا تتعلم من هذه التجربة أن قيمتها الوحيدة هى فيما تستطيع تقديمه للرجال الآخرين من متعة وهذا قد يفضى بها فى النهاية إلى الرذيلة.

وأتأمل جلوريا جينور فأجدها لم تتناول إلا القليل من طعام الغداء الموضوع أمامنا رغم أنها بدت لى أكثر بدانة مما كانت فى زيارتها الأولى لمصر قبل حوالى ١٥ عاما، فقد كان فى عام ١٩٨١م، وكانت أغنيتها الشهيرة فى ذروة انتشارها وأقيم لها حفل كبير فى ملعب التنس بنادى الجزيرة أذكر أنها غنت فيه أغنية (سوف أنجو) طوال أكثر من ١٠ دقائق رغم أن الأغنية لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق فقط.

وواصلت جلوريا حديثها فقالت: لقد تمكنت من التغلب على مشكلة غياب الأب فى حياتى والتى سببت لى الكثير من المتاعب، وأشعر الآن أن عندى شيئا أستطيع أن أفيد به الكثيرين ممن واجهوا نفس المشكلة، وأعتقد أننى كمطربة محبوبة أستطيع أن أجد آذانا صاغية من أبناء الجيل الجديد الذين قد يكونون أكثر استعدادا لتقبل ما أنقله لهم من نصح عن طريق المدرسين أو الخبراء المتخصصين، ومع ذلك فإن حديثى فى الكتاب ليس موجها فقط للأبناء وإنما أيضا للآباء الذين قد لا يدركون مدى الضرر الذى يسببونه لأبنائهم بسبب غيابهم عنهم فى مرحلة النشأة.

سألتها: كيف عانيت من هذه المشكلة فى بداية حياتك؟

قالت: لقد عانيت كثيرا فى صباى من الشعور بعدم الأمان ومن الافتقار إلى احترام الذات، وقد كان هذا هو مصدر كل المشاكل التى مررت بها بعد ذلك، فمثلا حين دخلت المجال الفنى كان على أن أحصل على قبول زملائى فى هذا الوسط ولم يكن أمامى إلا أن أسايرهم فيما يفعلون، سواء كان ذلك بالإفراط فى الشراب أو فى تناول المخدرات أو بالسهر الطويل، ولو كان لدى الشعور باحترام الذات لتمكنت من الإعراض عن ذلك كله لأنى كنت سأشعر أن قيمتى فى المجتمع ليست مستمدة من مدى مسايرتى لمن حولى.

قلت: وكيف وجدت الحل؟

قالت: كان ذلك حين توصلت إلى الحق أو اليقين أى الإيمان بالله، فالله هو الأب الأكبر الذى عوضنى عن غياب أبى الذى أنجبنى وأشعرنى بقيمتى الإنسانية وبالأمان والثقة بالنفس، وتلك كلها أشياء كنت أفتقر إليها، لقد ولدت مسيحية لكن ذلك كان مجرد تعريف فى شهادة الميلاد لكنه لم يكن له معنى فى حياتى العملية، إلى أن اهتديت بنفسى إلى المسيح ودينه، ولى أخ اسمه آرثر قطع معى نفس الرحلة إلى أن اهتدى هو الآخر إلى الله عن طريق الإسلام وأسمى نفسه عبد الله، لذلك فنحن قريبان جدا من بعضنا البعض ونشعر أننا نعبد نفس الرب.

قلت: قد يبدو غريبا بعض الشئ أن يصل العاملون فى عالم الشهرة والأضواء إلى معرفة الله كما وصلت أنت، فكيف أفضى بك طريق النجومية إلى الإيمان؟

قالت: كان ذلك فى عام ١٩٨٢م وكنت فى ذلك الوقت فى قمة شهرتى، فوجدت أن لدى الشهرة والمال وكل ما كنت أتمناه، لكنى لم أكن سعيدة ولم أشعر أننى حققت ما كنت

أصبوا إليه فبدأت أبحث عن شئ آخر يملأ حياتى ويشعرنى بقيمتى فالمال وحده لا يعطى القيمة للإنسان ولا الشهرة أيضا.

وتذكرت كلمات أغنية (سوف أنجو) التى تتحدث فيها إلى حبيبها الذى هجرها فتقول له إنها لن تنهار لأنها لازال أمامها الحياة بأكملها لتعيشها، وما زال أمامها الحب كله الذى ستمنحه لمن يستحق.

فقلت لها: ألا يبدو لك غريبا أنك نجوت مما كنت فيه بعد أن غنيت أغنية (سوف أنجو)؟

قالت: لقد كان لهذه الأغنية تأثير كبير فى حياتى ولا يمكن لأحد أن يتصور كيف تمكنت أغنية قصيرة كهذه من أن تفعل بى كل ذلك، فهى التى حققت لى النجاح وجلبت لى المال، ثم – كما قلت أنت – هى أيضا التى ملأتنى بالرغبة فى أن أنجو بحياتى من أزمة الافتقار لاحترام الذات التى كنت أعيشها، ولذلك فأنا ومنذ عام ١٩٨٢م كلما غنيت هذه الأغنية أغير فى كلماتها بعض الشئ فأقول (الله وحده هو الذى أعطانى القوة حتى لا أنهار).

قلت: إن مواجهتك الشجاعة لأزمتك بدلا من الانغماس أكثر فيما يزيد الأزمة تفاقما يكفى لأن يجعلك جديرة بالاحترام أمام نفسك وأمام الناس جميعا.

❑❑❑

الأمير إدوارد:
رفضت العرش كما رفضه جدى !

قــد لايعــرف البعض أن الأمير إدوارد أصغر أبناء ملكــة بريطانيا قد تنازل عن العرش تمامًا كما تنازل شــقيق جــده الذى سُمى على اسمه الملــك إدوارد الثامن الذى خلع التاج البريطانى كى يتزوج من عشــيقته المطلقة الأمريكية واليس سمســون، والفرق بين الحالتين هــو أن تنــازل الملك إدوارد كان عن العرش البريطانى عام ١٩٥٢م. أما تنازل الأمير إدوارد فكان عرش استونيا عام ١٩٩٤م.

الأمــير إدوارد هــو أصغر أبناء الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا وأكثرهم تحررًا من التقاليد الملكيــة، ولقد زار مصر شــتاء عام ١٩٩٢م وتناوالت معه طعام العشــاء فى منزل الســفير البريطانى آنذاك كريســتوفر لونج فتعرفت على شــاب ظريف حلو المعشــر خلع عن نفسه الرداء الملكى مفضلاً أن يتعامل مع الناس ببساطة وتلقائية.

ولقــد جرت العــادة فى البلاط البريطانى على أن ينخرط أبناء الملكة فى العمل بالقوات المســلحة، هكذا التحق كل من الأمير إدوارد وشــقيقه الأكبر أندرو بالبحرية الملكية، لكن إدوارد سرعان ما تركها عام ١٩٨٨م ليلحق بفرقة مسرحية شهيرة هى فرقة أندرو لويد ويبر مما اعتبر فى ذلك الوقت فضيحة صغيرة لا تقارن بالفضائح الأخرى التى ارتبطت بشقيقه الأكبر الأمير تشــارلز ولى العهد والخاصة بتدهور علاقته بزوجته آنذاك الأمير ديانا وقصة حبه للسيدة المطلقة كاميلا بولز.

وربما كانت فضائح الأمير تشارلز التى استحوذت على اهتمام الصحافة البريطانية هى التى سمحت لإدوارد بالاســتمرار لبعض الوقت فى عمله بفرقة أندرو لويد ويبر المسرحية إلى أن تركها بعد ذلك ليؤســس شــركة لإنتاج الأفلام الوثائقية للتليفزيون اسمها أردنت تى فى برودكشنز.

لكــن صحافــة الفضائح مع ذلك لم تتجاهــل الأمير الصغير تماما، وإنما وجدت وســط اهتمامها بتشــارلز وديانا بعض الوقت كى تتهمه بالمثلية الجنســية لمجرد أنه كان يصادق المثل مايكل بول الذى كان يعمل معه بنفس الفرقة المسرحية والمعروف بمثليته الجنسية، وربما كان هذا هو ما عجل بعد

ذلك بزواجه بصديقته صوفى رايس جونز التى ظل على علاقة بها طوال ست سنوات قبل الزواج دون أن يفكر فى الارتباط بها.

وحين حضر الأمير إدوارد إلى القاهرة كان فى طريقه إلى سلطنة بروناى لزيارة أدغالها والإقامة بمعسكر يقيمه هناك أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية لدراسة حياة الأدغال.

تلك إذن هى طبيعة أصغر أبناء ملكة بريطانيا، والذى كان أسلوبه فى التعامل يعكس تلك الطبيعة المنبسطة والتى لا تتقيد بالتقاليد الرسمية البالية.

سألته عن تركه للبحرية الملكية فقال:

لقد كانت تلك هى أكبر غلطة فى حياتى،والحقيقة أننى لم ارتكبها، وإنما دفعت إليها دفعًا، فقد كان علينا أن ننضم إلى القوات المسلحة الملكية بشكل أو بآخر وتصورت أن البحرية هى أخفها وطأة فدَخلتها، لكنى اكتشفت على الفور أنها بعيدة تمامًا عن طبيعتى وعما أود أن أفعله بحياتى فتركتها بلا تردد والتحقت بالفرقة المسرحية التى كنت أعشقها.

قلت: ألم يسبب لك ذلك مشاكل عائلية؟

قال: إلى حد ما، فقد حزن والدى أننى انضممت لفرقة مسرحية، لكن الحقيقة أننى كنت أهوى التمثيل منذ أيام المدرسة وكنت عضوًا فى الفرقة المسرحية لمدرستنا. وقد شعرت بأننى يجب أن أكون صادقًا مع نفسى وألا أعمل إلا ما أريد.

ورغم صغر سن الأمير إدوارد حيث لم يكن قد تخطى عامه الـ ٢٩ حين قابلته فإننى لاحظت أنه يتحدث عن الثقافة والفنون بوعى كبير. وقد استدعى انتباهى إصراره على أن الثقافة والفنون يجب أن تكون مدعومة حتى تحقق أهدافها النبيلة فى الارتقاء بالنفوس عن طريق تقديم المستوى الرفيع من العروض المسرحية والفنية.

ولم أخف دهشتى على الأمير من مثل هذا الحديث الذى يجئ من أحد أفراد العائلة المالكة فى بلد يتبع النظام الرأسمالى الذى يبعد تمامًا عن فكرة الدعم بجميع أشكاله، حتى وصل الأمير إلى أن صارت بعض كبريات الفرق المسرحية مثل فرقة شكسبير الملكية تواجه خطر الإفلاس، وقد دفع ذلك الوضع أحد كبار رجال المال الأمريكيين لأن يعلن استعداده لشراء الفرقة (نقدًا) ونقلها إلى الولايات المتحدة.

وذكرت للأمير إدوارد أن الكاتب المسرحى الكبير آلان إيكبورن قال لى فى ذلك الوقت: من العجيب أن تسارع الدولة بالتدخل لإنقاذ فرقة شكسبير الملكية مع أن الأخيرة أكثر بريطانية من أى من البنوك حتى لو بنك إنجلترا نفسه!

وروى لى الأمير إدوارد أنه تبنى أخيرًا دعوى لأن تحصل الفرق المسرحية الإقليمية فى بلاده على دعم يمكنها من دعوة كبار المخرجين المسرحيين من لندن للعمل بها لعدة مواسم حتى يتم الارتفاع بمستواها وجذب الجمهور إلى عروضها.

وسألت الأمير إدوارد عن شركة الإنتاج التى أقامها فقال لى إنه يستعد الآن لعمل فيلم تسجيلى عن حريق قلعة وندسور، وأن الفيلم الذى يتمنى إنتاجه حقًا فهو عن قصة شقيق جده الذى تسمى على اسمه وهو الملك إدوارد الثامن الذى ترك العرش حتى يتزوج من المرأة التى أحبها وهى المطلقة الأمريكية واليس سمسون.

وسألت إدوارد الصغير: هل كنت تفعل نفس ما فعله إدوارد الثامن لو كنت مكانه؟

قال: لست أعرف إن كانت ستواتينى القوة التى جعلت جدى الملك إدوارد يواجه البلاط الإنجليزى كله، فقد كان رجلاً شجاعًا عرف ماذا يريد ولم يدع شيئًا يقف فى طريقه.

ومضت السنون وفى عام ١٩٩٤م كنت فى لندن حين سمعت أن الأمير إدوارد رفض عرضا لاعتلاء عرش استونيا التى كانت تابعة فى السابق للاتحاد السوفيتى، وقد جاء العرض فى شكل رسالة تلقاها إدوارد من الحزب الملكى فى استونيا فى شهر يوليو من ذلك العام وتضمنت الرسالة التى نشرتها جريدة (الصنداى تايمز) فى ذلك الوقت (يشرفنا أن تقبلوا هذا الطلب النادر، فعملكم كممثل ومنتج تليفزيونى سيكون مثاليا لملك جديد يجمع بين الثقافة العريقة والواقعية السياسية الحديثة).

وقد حصلت استونيا التى يبلغ عدد سكانها ١,٥ مليون نسمة على استقلالها عن الاتحاد السوفيتى مع جمهوريتى لاتفيا ولتوانيا بمنطقة البلطيق.

لكن الأمير إدوارد الذى قال لى إنه لا يعرف إن كانت لديه الشجاعة التى كانت لجده كى يرفض العرش كان على نفس درجة شجاعة الملك إدوارد الثامن حيث رفض العرش هو الآخر وإن كان عرش استونيا وليس بريطانيا.

❑❑❑

ماجدة الخطيب:
كانوا يطاردوننى كالمجرمين الهاربين !

أخذت معى السفير المصرى فى باريس إلى كواليس مسرح (تريانون) العريق لتهنئة أبطال مسرحية (الجنزير) فى ليلة افتتاحها فى عاصمة النور باريس، فشد السفير على أيديهم جمعيا، لكنه حين وصل إلى ماجدة الخطيب رفع يدها على الطريقة الدبلوماسية وكأنه يقبلها وقال: مدام ماجدة.. لقد شرفت مصر الليلة! فأجهشت ماجدة بالبكاء وكادت يغشى عليها من شدة الانفعال لولا أن تداركنا الموقف بسرعة.

كانت الليلة هى افتتاح مسرحية (الجنزير) فى مسرح (تريانون) العريق الذى يقع فى قلب حى الفنانين بباريس وهو حى مونمارتر، وكنت قد دعوت عددا كبيرا من الضيوف لحضور الافتتاح كان من بينهم عمدة باريس والممثل الفرنسى الشهير جان كلود بريالى والكاتب الروائى روبير سولين والسفير المصرى فى باريس وزوجته.

وقد حققت المسرحية نجاحا كبيرا فى ليلتها الأولى حيث قام الجمهور الفرنسى بتحية أبطالها بالتصفيق وقوفا لدقائق طالت أكثر من المعتاد، وقال لى روبير سولين إن هذه أول مسرحية مصرية يشاهدها وإنه لم يكن يتصور أن المسرح المصرى على هذا المستوى من الإتقان الفنى، كما أشاد جان كلود بريالى بأداء الممثلين وقال إنهم يتفوقون على بعض الممثلين العالميين.

ورغم أن العرض كان باللغة العربية فإن الجمهور الفرنسى تمكن من متابعة تفاصيل الحوار عن طريق الترجمة الفرنسية التى أعدت خصيصا لهذا العرض والتى كانت تعرض على شاشة خاصة أعلى خشبة المسرح.

وقال لى السفير المصرى الصديق على ماهر إنه يرغب فى تحية فريق العاملين بالمسرحية وشكرهم على هذا العرض الرائع، فأخذته هو والسيدة زوجته وبعض الضيوف الآخرين إلى كواليس المسرح قابلوا المخرج الكبير جلال الشرقاوى، فقال له السفير إن إخراجه للمسرحية جاء على مستوى عالمى، كما شد السفير على أيدى أبطال العرض واحدا واحدا وهم الفنان الكبير عبد المنعم مدبولى وخالد النبوى، ووائل نور وعزة بهاء، وحين وصل إلى ماجدة الخطيب مد السفير يديه بالتحية ثم أخذ يدها ورفعها إلى فمه وهو يقول: مدام

ماجدة.. لقد شرفت مصر الليلة بهذا الأداء الرائع الذى أبكى جميع الفرنسيين الحاضرين من شدة التأثر.

وإزاء انفعال ماجدة الخطيب بدت الدهشة على وجه السفير فخشيت أن يتصور أنه أخطأ فى شئ جعلها تبكى، فقلت له بسرعة: إنه شدة الإرهاق، لقد أمضى الممثلون اليوم بطوله فى أداء تدريبات العرض على خشبة المسرح لأنه جديد عليهم لكنى كنت أعرف ما كان يعتمل فى نفس الفنانة العظيمة صاحبة أجمل ابتسامة فى الوسط الفنى، فقد قصت على ماجدة الخطيب الكثير من ذكرياتها منذ عرفتها لأول عام ١٩٩٥م حين بدأنا الإعداد لتقديم (الجنزير)، فقد كانت ماجدة قد ابتعدت عن التمثيل لسنوات طالت ولم يكن اسمها متداولا فى المسرح فى ذلك الوقت، لكنى كنت من المعجبين بها، وفى إحدى الجلسات التى كنا نعقدها أنا بوصفى مؤلف المسرحية وكل من المخرج فهمى الخولى مدير المسرح الحديث الذى كان متحمسا لتقديم المسرحية ومخرج العرض الأستاذ جلال الشرقاوى، كنا نتناقش فى اختيار أبطال العرض حين اقترح أحدهما اسم ماجدة الخطيب للقيام بالبطولة، وتحمست على الفور لهذا الاقتراح فقد كنت أعتقد دائما أن موهبة ماجدة الخطيب أكبر بكثير من الأدوار السينمائية التى قامت بها، وأن أيا من المخرجين الذين عملت معهم فى السينما لم يحاول الوصول لما هو أبعد من مظهرها الخارجى الجذاب بما يحمله من تمرد نسوى سعدت به الشاشة الفضية لكنه لم يكن يكفى وحده لاضطلاعها ببطولة عرض مسرحى به أبعاد تراجيدية واضحة، لكنى كنت أرى فى ماجدة ممثلة مسرحية من الدرجة الأولى تستطيع أن تقدم الجانب المأسوى العميق وأنها من النوعية التى يطلق عليها فى فرنسا: une tragediene

وهكذا بدأت علاقتى بماجدة الخطيب والتى كان دور (زهرة الشرقاوى) فى مسرحية (الجنزير) يمثل لها عودة قوية إلى العمل الفنى بعد ابتعادها الطويل، وأذكر خلال إحدى ليالى العرض بمسرح السلام أن المخرج السينمائى الكبير يوسف شاهين شاهد ماجدة على المسرح فانبهر بها وعرض عليها على الفور أن تعمل معه فى فيلم (سكوت حانصور) واستمرت معه ماجدة بعد ذلك فى الفيلم التالى (الإسكندرية نيويورك)

ولقد روت لى ماجدة الخطيب عند وصولنا إلى باريس ما عانته فى الماضى بعد أن تركت مصر إلى بيروت ثم باريس حيث كانت بعض عناصر المخابرات المصرية تطاردها من أجل تجنيدها لصالحهم.

والحقيقة أن ماجدة الخطيب نشـأت فى بيت سياسـى، فقـد كان والدها هو المرحوم محمد الخطيب إحدى قيادات حزب مصر الفتاة الذى كان يتزعمه المناضل أحمد حسين، ولم تكن ماجدة الصغيرة قد تخطت سـن الثانية عشـرة من عمرها حين أرسـلها والدها إلى منزل أحمد حسـين المجاور لتنقل إليه تحذير والدها من أن الشـرطة تستعد لإلقاء القبض عليه، وقد خرج أحمد حسـين بالفعل من منزله مع ابنة صديقه وما أن غادرا المنزل حتى داهمته الشرطة بحثا عن زعيم الحزب لكنها لم تجده.

لكـن بالنسـبة لماجدة الخطيب كان مثل هذا العمل الـذى قامت به يختلف تماما عما كانت تطالبها به المخابرات، لذلك رفضت ما عرض عليها، وتحملت بسـبب ذلك الكثير مـن المتاعـب كان من بينها رفض تجديد جواز سـفرها والتهديد بترحيلها إلى مصر حيث كانت ستقع فى قبضة المخابرات رغما عنها، وهكذا لجأت ماجدة الخطيب إلى العمل فى وظيفة (جارسونة) حتى تتمكن من الاستمرار فى العيش بعيدا عن مصر وكانت تتجنب كل الرسميين المصريين خاصة العاملين بالسفارة.

وتذكر ماجدة جيدا أن أحد مستشارى السفارة المكلف بملف الأمن حضر إلى الكافيتيريا التى كانت تعمل بها، وما أن رأته حتى استدارت بسرعة ورفضت الذهاب إلى طاولته رغم أنها كانت تقع داخل المنطقة التى كلفت بها، وقد رفض مدير الكافتيريا هذا (الدلع) الذى لم يفهم له سببا مما أدى إلى إنهاء التعامل معها.

كان كل ذلك ماثلا فى ذهنى وأنا أتابع تحية السـفير للفنانة المصرية الكبيرة وإشـادته بأدائها فى المسرحية التى شاهد بنفسه احتفاء الجمهور الفرنسى بها سواء الرسميين منهم أو الجمهور العادى، لكنى لم أكن أتصور حجم الانفعال الذى شعرت به ماجدة حين أشاد بها السـفير، وهو الانفعال الذى تحول بعد انصراف السـفير إلى بكاء شبه هستيرى قالت لى وسـط تشـنجاته: لقد كان أعضاء السـفارة يطاردوننى فى كل مكان مطاردة المجرمين الهاربين، وكنت أهرب منهم كأنى قتلت قتيلا، واليوم أنت جعلت السفير يبدى احترامه لى قائلا إننى قد شرفت مصر، فكان الموقف أكثر مما أستطيع تحمله.

قلت لها: أنا لم أطلب شـيئا من السـفير، عملك هو الذى دفعه لأن يقدم لك التحية التى تستحقينها.

❑❑❑

بافو ليبونين:
أصولنا كلها عندكم فى الجنوب.

ماذا يحدث لرجل السياسة حين يقرر فى سن الـ ٦٦ أن يتقاعد؟ هل ينعزل عن الحياة ويجلس ليكتب مذكراته، أم أن اهتمامه بالشأن العام يظل قائما وإن اتخذت ممارسته شكلا آخر؟ هذا ما كان يدور فى خاطرى وأنا فى طريقى للقاء واحد من أكبر رجال السياسة فى فنلندا وهو بافو ليبونين رئيس الحزب الديمقراطى الاجتماعى السابق ورئيس وزراء فنلندا من ١٩٩٥م حتى ٢٠٠٣م ورئيس البرلمان من ٢٠٠٣م حتى ٢٠٠٧م، والذى جاء إلى مصر مع زوجته بافى فى رحلة سياحية يزوران خلالها الأقصر وأسوان.

قلت لبافو ليبونين: مازلت أذكر خطابك العظيم الذى ألقيته فى أبريل ٢٠٠٦م وقت أزمة الرسوم الكاريكاتورية التى حدثت فى دولة مجاورة لكم هى الدنمارك والذى طالبت فيه بضرورة تواصل الحضارة الغربية مع الشرق المسلم، وأشرت فيه إلى الفضل الكبير للحضارة العربية على الغرب.

قال : لقد كان هذا رأيى ومازال، فما نطلق عليه اليوم اسم الحضارة الغربية قام على أسس جاءتنا من الشرق ومن الخطأ أن ننظر للعرب والإسلام على أنهم غرباء عنا لأن هذه النظرة هى التى تولد ذلك الصراع المغلوط الذى يعبر عن عنصرية شديدة والذى انتشر فى مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ولم تكن أزمة الرسوم الدنماركية إلا أحد عوارضه.

وكانت سفيرتنا القديرة فى هلسنكى فى ذلك الوقت وهى سعاد شلبى قد تفضلت وأرسلت لى نص كلمة ليبونين التى انتقد فيها اتجاه الغرب إلى التركيز على الإرهاب بما يطغى على الحقائق الرئيسية فى العالم والتى بدونها لا نستطيع أن نقيم حوارا بين الحضارات، ثم قال صراحة (إننا بحاجة لإعادة تعليم أنفسنا التاريخ لنعرف أن مصادر حضارتنا كلها آتية من الشرق).

ونظر ليبونين أمامه فى الفضاء ونحن جلوس فى منزل السفير الفنلندى فى القاهرة، وقال لى: لقد كنت فى هذا الخطاب أتوجه أساسا إلى تلك المقولة السائدة فى الغرب والتى لا أتفق معها أبدا وهى أن حضارتنا الغربية الحالية بدأت فى اليونان فهذا غير صحيح، إن حضارتنا بدأت فى الشرق والحضارة اليونانية لم تعش فى فراغ بل كانت حضارة متصلة بحضارات أخرى معاصرة لها وسابقة عليها.

ثم قال: علينا أن نذكر أن الإسلام فى القرن السابع الميلادى حين كانت أوربا مازالت فـى عصور الظـلام قدم واحدة من أهم حضـارات العالم وحتـى إذا تحدثنا عن الحضارة اليونانية باعتبارها أسـاس حضارتنا الحديثة فإن الإسلام بحضارته هو الذى حفظ لنا تلك الحضارة التى استعدناها بعد ذلك فى عصر النهضة.

وسألت ليبونين: ما هو – فى رأيك – أكبر إنجاز سياسى حققته خلال سنوات عملك الطويلـة منذ عينت سـكرتيرا لرئيس الوزراء ماونو كويفسـتو عـام ١٩٧٩م وحتى أعلنت اعتزالك فى مارس ٢٠٠٧م؟

قال بلا تردد: إنه ذلك التوافق الذى حققته فى فنلندا بين مختلف الاتجاهات السياسية، فالأعمال الكبرى فى السياسة لا تتحقق إلا من خلال قدر من الإجماع الوطنى الذى أعتقد أن على كل سياسـى كبير أن يعمل على تحقيقه، لقد جعلت الأحزاب الثلاثة الكبار شركاء فى الحكـم وكان هدفى هو تقريبها من الحزب الحاكم وليس عزلها، وقد تمكنا بهذه الطريقة من تحقيـق إنجازات كبيرة خاصة فى المجال الاقتصادى الـذى جعل فنلندا تختلف كثيرا عن الكثير من الدول الأوربية الأخرى التى كانت تتزايد فيها معدلات البطالة بشكل مضطرد.

ثم قال: لقد كان من نتائج هذه السياسة أيضا أننا حققنا أفضل مستوى للتعليم فى العالم وقد أكدت المؤشرات الدولية أكثر من مرة إلى أن الطالب الفنلندى حتى سن الـ ١٥ يحصل على أفضل تعليم فى العالم، فالتعليم الجيد عندنا متاح للجميع وليس فقط لأبناء الطبقات العليا الذين يستطيعون تحمل نفقات التعليم الخاص.

قلت: لقد كنت من أهم دعاة ما أسميته – وأصبح يسميه العالم من بعد – (البعد الشـمالى) وهى السياسـة التى كانت تهدف إلى ضم دول أسـكندناوة الشـمالية إلى الاتحاد الأوربى.

قـال: نعم، ولقـد أعطانا هذا فرصة للتأثير على تكوين هـذا الاتحاد منذ بدايته. لكن دعنى أقل لك إننى وبعد أن حققت (البعد الشـمالى) للاتحاد أعتقد أن علينا الاهتمام الآن بـ(البعـد الجنوبى) وأعنى بذلـك دول حوض البحر الأبيض المتوسـط التى تجذبنا إليها حقائق كثيرة منها حيويتها السياسية ومنها أيضا حقائقها الديمقراطية.

إن علينـا أن نهتـم بالجنـوب لأن أصولنا كلها هناك وهذا الانقسـام الموجود الآن بين حضارتنا الغربية المسـيحية والشـرق الإسـلامى هو زائف ولا يسـاعدنا على فهم أنفسنا، فالمسيحية فى الحقيقة كانت ديانة شرقية، لذا فهى لا تفصل بيننا وبين الشرق بل يجب أن تكون عنصرا مقربا فيما بيننا.

وأنظر إلى وجه السياسى الفنلندى المخضرم بافو ليبونين فلا ألحظ على ملامحه أنها تغيرت كثيرا فى السنوات الأخيرة منذ كان رئيسا للوزراء، الشىء الوحيد على ما يبدو الذى جاءت به السنون هو بطء حركة جسده أثناء السير.

قلت: هل حان الوقت أن تجلس لتكتب مذكراتك؟

قال: إننى بالفعل أكتب الآن مذكراتى، لكنى أعمل أيضا على كتاب آخر يتعلق بالأوضاع الحالية ولا يعتمد على الذكريات، فالحياة لا تتوقف واهتمامى بالشأن العام لا ينتهى بسبب تقاعدى، فأنا أعتزم مواصلة الدعوة بشتى الطرق للتقريب بين الحضارة الغربية وحضارة الإسلام من خلال الحوار ومن خلال الفهم السليم لحقائق التاريخ.

وتذكرت بعض رؤساء وزرائنا السابقين وبعض رؤساء مجلس الشعب الذين بمجرد انتهاء فترة خدمتهم شطبت أسماؤهم من الحياة العامة ولم نعد نسمع عنهم، بل إن بعضهم قد يصبح أيضا (شخصا غير مرغوب فيه) فلا يذكر اسمه فى أى مناسبة ولا يدعى إلى أى محفل، ناهيك عن الاستفادة من خبرته المتراكمة عبر السنين، لكنى تذكرت فى نفس الوقت أننا نتحدث عن نظام سياسى مختلف، نظام ديمقراطى لا يسعى إلى عزل الآخرين والنظر لوجودهم على أنه مزاحمة على ساحة الحكم، فالحكومة الحالية فى فنلندا على سبيل المثال هى حكومة ائتلاف بين حزب اليمين وحزب الوسط بينما رئيسة الجمهورية تمثل الحزب الديمقراطى الاجتماعى المعارض، أى أن الأحزاب الثلاثة الكبرى ممثلة فى الحكم، وذلك وضع لا يمكن تخيله عندنا بأى حال من الأحوال.

قلت لبافو ليبونين: ما هو المشروع الذى يشغلك الآن غير ما تكتبه من كتب.

قال: فى العام القادم تحل الذكرى المئوية لميلاد كاتبنا الروائى الكبير ميكا فالتارى وأنا أرأس اللجنة المشرفة على الاحتفالات بهذه المناسبة، وفالتارى كما تعرف هو مؤلف واحدة من أشهر الروايات العالمية فى القرن العشرين وهى رواية (سنوحى المصرى) التى بيعت منها ملايين النسخ فى جميع أنحاء العالم وحولتها هوليوود إلى فيلم سينمائى شهير فى الخمسينيات، ولما كان موضوع الرواية هو التاريخ المصرى القديم فإنى أتطلع مشاركتكم معنا فى وضع التصور المناسب لهذا الاحتفال.

قلت: ظننت فى البداية أنك تركت السياسة وأصبحت تهتم بالأدب، لكنى أجدك الآن مازلت على اهتمامك بقضيتك الكبيرة وهى التقريب بين الشعوب وإزالة سوء الفهم بين الحضارة الغربية وحضارتنا العربية.

فابتسم السياسى الفنلندى الكبير وقال: تلك يجب أن تكون قضيتنا جميعا فى عصر العولمة هذا.

❑❑❑